غاية الأبحاث والدِّراسات الدِّينيَّة والمؤتمرات الكنسيَّة

مجموعة دارسين وباحثين من مركز دراسات الآباء
دير القدِّيس أنبا مقار
السَّبت ١٥ فبراير سنة ٢٠١٤م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

الإخوة والأخوات الأحباء، ضيوفنا الأعزاء

لقد اخترتم لحياتكم منهج الدِّراسة والبحث فيما يخص الله والكنيسة. واجتهدتم وسهرتم لتخرج دراساتُكم وأبحاثُكم إلى النُّور. وعقدتم المؤتمرات والنَّدوات والمناظرات لتخدم المنهج الذي أردتموه.

واليَوم أريد أن أطرح عليكم سؤالاً هو: ما هي غاية أبحاثِنا ودراساتِنا ومؤتمراتِنا بين الحين والآخر؟ هذا ما أودُّ أن أشارككم به اليَوم. لأنه إن كانت الغاية من الدِّراسات والأبحاث هي السَّعي وراء المعرفة من أجل المعرفة وحسب، فما هي الفائدة التي تعود علينا وعلى حياتنا؟ حتى وإن كانت هذه الأبحاث والدِّراسات دينية كنسيَّة.

إنَّ آفة عصر المعلوماتية الذي نعيشه اليَوم، هو إخضاع كلِّ شيء للعقل والمنطق والتَّحليل. أمَّا أن تدخُل هذه الآفة إلى الكنيسة، فهذه هي المأساة بعينها. وأقول مأساة، ليس من قبيل المبالغة، بل هو الواقع بعينه، لأنَّه حتى أسرار الكنيسة نفسها، خضعت لدراسات وأبحاث عقلانيَّة، إلى جانب خضوعها للوسائل السَّمعيَّة والبصريَّة الحديثة، أفقدت السِّر هيبته وجلاله، بدلاً من أن تزيده كرامة ومهابة. وسقط من الكنيسة ما كان يُعرف يوماً فيها باسم ''التَّسليم السِّري''. وقبل أن أواصل كلامي، أودُّ أن أوضح ماذا يعني التَّعليم السِّري؟

يتحدَّث القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في كتابه عن الرُّوح القُدُس، عن مكانة وأهميَّة التَّسليم السِّري في الكنيسة، وأنَّه إلى جانب التَّعليم المكتوب أو المعلَن، يشكِّلان معاً دِعامة الإيمان الصَّحيح. ولا يمكن فصل أيهما عن الآخر. فيقول:

[العقائد والممارسات التي تقبلها الكنيسة وتحفظها، يستند بعضها إلى التَّعليم المكتوب، والبعض الآخر قبلناه سرًّا، وهو تسليم الرُّسُل. وهذان هما دِعامة الإيمان الصَّحيح، ولهما نفس القوَّة. وهو ما لا يعترض عليه أحدٌ، لاسيَّما من توفَّرت له خبرة في ممارسات الكنيسة. ونحن لا نستطيع أن نرفض ما استقرَّ من عادات في الكنيسة، بدعوى أنَّ هذه العادات لا تستند إلى بُرهان مكتوب، أو أنَّ قيمتها صغيرة. **لأنَّنا إن رفضنا عادات الكنيسة، فسوف نجرح الإنجيل نفسه**، بل نحوِّل التَّعليم إلى اسم بلا معنى ...

ما هو المصدر المكتوب الذي يحدِّد أن تكون غطسات المعموديَّة ثلاث؟ ويمكن أن نسأل عن العادات الأُخرى الخاصة بالمعموديَّة، مثل جحد الشيطان وكلَّ ملائكته، ما هو المصدر المكتوب الذي يُعلن لنا هذا؟

أليس كلُّ ذلك من التَّعليم العظيم والسِّري غير المُعلَن. والذي احتفظ به الآباء في سريَّة تامة، لكي لا يعرفه المتشكِّكون والمتطفِّلون **فيحفظون بذلك هيبة الأسرار**؟ فالذي لا يجوز إعلانه لغير المعمَّدين، هو ما لا نسمح لهم بحضوره، ولا حتى بتسجيله مكتوباً ...

الرُّسُل والآباء قد أرسوا دعائم الشَّرائع الكنسيَّة، وحفظوا هيبة الأسرار وكرامتها بالإبقاء عليها سرًّا وعدم إذاعتها، **لأنَّ ما يُعلن ويُعرف لدى عامة النَّاس يفقد هيبته، ولا يُصبح سرًّا، وهذا هو**

السَّبب في وجود التَّسليم غير المكتوب الذي يحوي عقائد وممارسات لا تُعلن ولا تُدوَّن حتى لا تُصبح من توافه الأمور متى صارت مألوفة للكُل. العقيدة والتَّعليم اللَّذان يتم إذاعتهما، هما شيآن متمايزان: الأولى نحتفظ بها في صمت، والثَّانية يمكن إذاعتها لكلِّ الدُّنيا ...][1].

ويحدِّد القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) أنَّ المعموديَّة والإفخارستيَّا وزيت الميرون، هي من الأمور التي لا يُسمح لغير المعمَّدين بالنَّظر إليها، أو الاطلاع عليها[2].

ولقد أحصى الذين درسوا مؤلَّفات القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) خمسين موضعاً منها على الأقل استعمل فيها عبارة متكرِّرة هي:

[سوف يفهم معنى كلامي المعمَّدون فقط].

وعندما كان القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَّات (٣٢٩-٣٨٩) يعظ عن الأسرار، كان يقول للشَّعب: **[لقد تحدَّثتُ كثيراً عن السِّر حسبما هو مسموحٌ لنا أن نتحدَّث علناً وأمام النَّاس،** أمَّا باقي الحديث، فسوف تسمعونه في السِّر لكي يبقى هذا الكلام سرًّا خاصاً بكم] (عظة ٤ على المعموديَّة).

ويتحدَّث القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) إلى الموعوظين فيقول لهم:

[نحن لا نتحدَّث علناً عن الأسرار أمام الموعوظين، بل نتحدَّث بطريقة غير واضحة لا يعرفها إلاَّ المؤمنين فقط. **أمَّا الذين لا يعرفون، فلا تؤذيهم الكلمات التي سمعوها**].

ويقول أيضاً القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) في مقاله الافتتاحي لطالبي المعموديَّة:

[عندما تتسلَّم تعليماً، إن سألك موعوظ من الخارج قائلاً لك: ماذا يقول المعلِّمون؟ لا تجبه بشيء. إنَّنا نسلِّمك سرًّا ورجاءً في الحياة المقبلة، فاحفظ السِّر لذاك الذي يهبك المكافأة.

لا يقُل لك أحدٌ ماذا يصيبك لو عرفته أنا أيضاً؟ فإنَّه كالمريض الذي يطلب خمراً، وإذ يأخذه في وقت غير مناسب، يحدث له هذيان، وبهذا يتحقَّق شرَّان: المريض يموت، والطَّبيب يُلام ... إنك كنتَ يوماً موعوظاً، و لم أخبرك بما أُعلنه لك الآن. إنَّك ستختبر كيف أنَّ أمور تعاليمنا عالية، وعندئذ تدرك أنَّ الموعوظين لم يتأهَّلوا بعد لسماعها].

هذا هو التَّعليم السِّري الذي سقط من الكنيسة، فاضرَّ بأسرار الكنيسة. لقد كان السُّقوط الأوَّل للإنسان، هو بسبب رغبته الجامحة في المعرفة، بمعزل عن الله. فماذا نقول اليَوم، ونحن نعيش حُمَّى السَّعي إلى معرفة كلِّ شيء عن أيِّ شيء، ومن بينها المعرفة عن الله وعن الكنيسة وأسرارها؟ وهناك فرق كبير بين أعرف الله وبين أن أعرف شيئاً عن الله.

أصبح الكثيرون يتكلَّمون عن الله، وهم لا يعرفونه. ويحضرون إلى بيته ولا يشعرون به. والعلاَّمة الواضحة والظاهرة على ذلك، هي كنائسنا التي ضعفت فيها روح المهابة والمخافة من حضرة الله السَّاكن في بيته.

إنَّ معرفة القدِّيس يوحنَّا الحبيب عن الله، يشرحها لنا بقوله: «الذي كان من البدء. الذي سمعناه. الذي رأيناه بعيوننا. الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ...» (١يوحنا ١:١). ويقول المزمور: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرَّب» (مزمور ٨:٣٤).

إذاً معرفة الله يلزم أن تكون معرفة اختباريَّة، معاشه، لها فعل ملموس في حياتنا. وأوضح دليل على وجود

١- القدِّيس باسيليوس الكبير، الرُّوح القُدُس، مرجع سابق، ٦٦:٢٧،٦٧

٢- نفس المرجع، فصل ٢٧

مخافة الله في حياتنا من عدمها، هو عبادتنا له في بيته.

لقد كان البابا أثناسيوس الرَّسولي يقول: إنَّ الإنسان بحضور الكلمة، دُعي إلى الوجود من حالته الطبيعيَّة الأولى وهي عدم الوجود، فإنه بالطَّبيعة متى تجرَّد من معرفة الله، عاد إلى العدم. (تجسد الكلمة ٤:٥).

وفي الأدب الرَّهباني نقرأ:

''التقى سائحٌ بسائحٍ آخر في بريةِ سيناء، فسأله: «بماذا يكون الخلاصُ»؟ قال له: «**بالمعرفةِ** بحقائقِ الأمورِ **والعمل** بحسب الحقِّ». قال له: «إذن فمن لا يعرف لا يخلُص»؟ قال: «بلى». فقال: «وما هي المعرفةُ إذن»؟ قال: «أن يعرفَ العبدُ حقيقةَ خالقِهِ، ومِمَّ خلقه، وما يؤول إليه أمرُه، فإذا عرف ذلك، فإنه لن يعصيه، بل سوف يصنع مرضاته طول حياته». فقال: «صدقتَ»، ثم انصرف''.

واضحٌ من القَول السَّابق، أنَّ المعرفة قد تُرجمت إلى فعل، يؤول إلى الخلاص.

ونقرأ أيضاً: ''بدءُ الصَّالحات وكمالها، هو حدُّ الاتضاعِ بمعرفةٍ حقيقيةٍ، لأنَّ المعرفةَ مقترنةٌ بالمتواضع، الإنسانُ مصنَّفٌ من نفسٍ وجسدٍ، إن لم يستعمل الجسدُ خبزاً فلن يعيشَ، كذلك النَّفْسُ إن لم تتغذَّ بالصَّلاةِ والمعرفةِ الرُّوحانيةِ، فهي مائتةٌ''.

ونقرأ أيضاً في الأدب الرَّهباني:

''إن ثلاثةً من الإخوةِ زاروا شيخاً، فقال له الأول: «يا معلمُ، لقد كتبتُ بنفسي العتيقة والحديثة»، فأجابه الشيخُ: «لقد ملأتَ طاقات قلاَّيتِك ورقاً». فقال له الثاني: «إني قد حفظتُ العتيقةَ والحديثةَ في صدري»، فقال له الشيخُ: «لقد ملأتَ الهواءَ كلاماً». أما الثالث فقال له: «لقد نبتَ الحشيشُ وملأ موقدي». فقال له الشيخُ: «لقد طردتَ عنك محبةَ الغرباءِ»''.

ونُصلِّي في المزمور الكبير ونقول: «صلاحاً وأدباً ومعرفة علِّمني». ويقول أحد الشُّيوخ: ''طلب داود الطُّوباوي من الله قائلاً، أعطني صلاحاً وأدباً ومعرفةً، لأنَّ الصَّلاحَ بغير معرفةٍ باطلٌ، كذلك المعلِّم بلا صلاحٍ فهو معلمٌ باطلٌ''.

من أجل هذا، إذا لم تُنمِّ أبحاثُنا ودراساتُنا روح العبادة في الكنيسة، وتعمِّقها، فما الفائدة منها؟ وبمعنى آخر، إنَّ غاية أيَّة أبحاث دينيَّة مسيحيَّة، هي تعميق العلاقة بالمسيح، ليحتل مكانه الحقيقي في بيته الذي هو الكنيسة. أي أنَّ العلامة التي نستدل منها على أنَّ هذه الأبحاث أو الدِّراسات هي من الله، أنها تقود إليه. وكلُّ دراسة كنسيَّة بعيدة عن العبادة الكنسيَّة تظل مجرَّد معرفة جدباء لا تُجدي نفعاً.

وسوف أحاول أن أشرح العبارة السَّابقة، في السُّطور التَّالية.

قال الله لموسى: «إني أكون معك، وهذه تكون لك **العلاَّمة** أني أرسلتك. حينما تُخرج الشَّعب من مصر، **تعبدون الله** على هذا الجبل» (خروج ٣:١٢).

كانت عبادة الشَّعب للرَّب في بريَّة سيناء، عبادة طقسيَّة مقنَّنة، بمراسيم محدَّدة غاية في الدِّقة. محفوفة بقرابين وبذبائح متنوِّعة ورفع بخور، وصفوف مرنمين، ومنارة ذات سبعة سُرُج، ومائدة خُبز الوجوه، وقُدس أقداس محفوف بالمهابة والجلال، فيه تابوت العهد القديم، بداخله لوحا شريعة العهد القديم، ومظلَّل بكاروبيمان. ولا يدخله رئيس الكهنة إلاَّ مرَّة واحدة في السُّنَّة، وليس بدون دم، لكي يقدِّمه عن نفسه وعن الشَّعب. وكانت كلُّ وصايا وتشريعات العهد القديم، عبر كهنوت مرتبط بكنيسة العهد القديم ارتباطاً وثيقاً. فلم يكن يستطيع اليهودي أن يتمم أياً من الوصايا الكثيرة إلاَّ من داخل كنيسة العهد القديم، ووفق نظام صارم. هكذا أراد الله أن تكون

عبادته وفق مراسيم هو نفسه واضعها.

وكلُّ الفرائض والطُّقوس التي فُرض على الكهنة والشَّعب ممارستها في كنيسة العهد القديم، كانت تهدف إلى غاية واحدة، هي تأهيل الشَّعب ليستحق حضور الله بينهم في بيته. وهكذا حملت كنيسة العهد القديم في ثناياها ملامح كنيسة العهد الجديد، والصُّورة الأولى لها. ولَّما جاء المسيح، وبدم نفسه وعبر الصَّليب، صار رئيسَ كهنة إلى الأبد في كنيسة العهد الجديد. فتغيَّر الكهنوت اللاَّوي، وبطلت الذَّبائح بأنواعها، وتغيَّر النَّاموسِ الذي لم يُكمِّل شيئاً، لأنه بالضَّرورة إن تغيَّر الكهنوت يصير تغيُّر للنَّاموس أيضاً. وتحوَّلت أشباه الحقيقة التي عاشها الشَّعب في القديم إلى الحقيقة عينها في كنيسة العهد الجديد.

نخلُص إلى القَول بأنَّ الدَّليل على أنَّ الله استأمن موسى على ناموسه ووصاياه، هو عبادة الشَّعب لله. هذه نقطة في غاية الأهميَّة. ودعونا الآن نطبق ما سبق ذكره على فرع من فروع الأبحاث والدِّراسات، وهي الدِّراسات اللِّيتورجيَّة على سبيل المثال.

تشكلت طقوس الصَّلوات القبطيَّة في أصولها الأولى في القرن الرَّابع الميلادي، وظلت تنمو محافظة على الأصول الأولى للتَّقليد القبطي حتى القرن الرَّابع عشر الميلادي، ولكن مع بعض انتكاسات طفيفة في القرن الثَّاني عشر الميلادي، تركت بصماتها على الطَّقس حتى اليَوم. ولكن لما جاء القرن الخامس عشر الميلادي، حدثت تحوُّلات جذريَّة في طقوس الصَّلوات، بسبب إضافات كثيرة، شوشت على الصُّورة النَّقيَّة الأصيلة لطقوس الصَّلوات، ولكنَّها لم تطمسها. حتى أصبحنا اليَوم نسعى لاستيضاح تقليدنا اللِّيتورجي الأصيل، بين كومات متراكمة من الإضافات والتَّأويلات عبر السِّنين، فصار الشَّكل الخارجي لطقوس الصَّلوات في الخمسة قرون الأخيرة، غير الشَّكل الذي كانت عليه قبل هذه القرون الخمسة الأخيرة. وصار البحث منصباً على استكشاف الفرق بين طقوس صلوات ما قبل القرن الخامس عشر، وما بعده. وبرغم أنَّ النُّمو هو سمة أيِّ شيء أو أيِّ كائن حي، إلاَّ أنَّ هذا النُّمو إن لم يكن محافظاً على الأصول والجذور، ملتزماً بالتقليد، يضر ولا ينفع.

لذلك فإنَّ دراساتنا اللِّيتورجيَّة يلزم أن تُترجم إلى حياة ليتورجيَّة كنسيَّة معاشه. ومن أجل هذا، أقترح عليكم – وأنتم أصحاب معرفة ودراسة – تشكيل لجنة لمشروع تنقيح النُّصوص اللِّيتورجيَّة، وهو عمل سيستغرق سنوات من الجهد المتواصل، على أن يُقدم هذا المشروع إلى السُّلطة الكنسيَّة، ممثَّلة في قداسة البابا والمجمع المقدَّس، ليُصبح له بعد دراسته ومراجعته، صلاحيَّة التَّنفيذ.

أشكر لكم حُسن إنصاتكم.